ولم نك نطعم المسكين

البناء.. والبداية المبكرة وسورة المدثر

« ١ »

الذين يُقدرون الأهمية البالغة لعملية البناء السليم للمجتمع، وما ينبغي لذلك من الإحكام ومراعاة الأسس السليمة، كيما ترتفع قواعد هذا البناء على الصورة المطلوبة، كما يقدرون تمتين الروابط بين أبناء المجتمع كيما يكونوا ـ وهم يكدحون في بناء الحياة ـ عناصر نمائه في مختلف المجالات، وطاقات الرقي به إلى ما هو الأكمل والأفضل.

الذين يقدُرون ذلك كله بإحاطة وإدراك: يشاركوننا الحكم بأهمية نظرة الإسلام المبكرة ـ التي أسعدنا اصطحابها من قريب ـ إلى جانب من جوانب هذه العملية، قبل أن توسَّد إلى هذا الدين سياسة المجتمع بكل شؤونه ليُحكَم بما أنزل الله، وما لذلك من دلالة لا تقبل الشك، على أن القرآن الحكيم الذي يهدي للتي هي أقوم: هو كلام ربنا العليم الخبير، نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله ﷺ ليكون من المنذرين، وأن شرعة الإسلام هي شرعة مالك الملك سبحانه وتعالى، وهو أعلم بما يصلح عباده، وما هو خير لهم في دنياهم ويوم يبعثون. وليست هذه الشرعة ـ على ما يزعم أهل التفسير المادي للتاريخ ـ تمخضات أرضية لأوضاع اجتماعية واقتصادية معينة، نادى بها مصلح في الأرض كان من المجنيِّ عليهم في تلك الأوضاع، نداءً مقطوع الصلة بالسماء، وأن ما طرحه من مقولات وأفكار تتصل بالدين: إنما هي عناوين مناسبة لما أراد من ذلك الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي. وهي عناوين ومصطلحات اقتضتها بيئة وظروف معينة.

أجل: ليست هذه الشرعة المباركة كذلك: وإنه لزعم تسقطه النصوص والوقائع جملة وتفصيلاً، وقد ظهر عواره أكثر وأكثر عند التطبيق العملي. وجل شأن ربنا القوي العزيز إذ يقول في محكم كتابه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٢ ــ ٤].

هذا: ومن أبجديات ما يقتضيه الإيمان: اعتقاد أن كتاب الله يهدي لأقوم السبل، ويسلم الأمة إلى أفضل وأكرم المناهج؛ ذلكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾[الإسراء: ٩ ــ ١٠].

وفي حديث موصول بما سلف من القول فيما دلت عليه آي الكتاب ــ وبخاصة ما أشرقت به سورتا الماعون والفجر ــ من تباشير الإصلاح الاجتماعي الذي له كبير الأثر في ميدان الاقتصاد، وتوفير الانتفاع بالطاقة البشرية.. أود أن أشير إلى أن ما ذكر ــ على سبيل الإنكار والتعجب لوجوده ــ من صفات لتلك العناصر المهلهلة التي تزعزع البناء وتعوق النماء: لا بد لاستجلاء الحكم عليها بما لها من سوء الأثر في المجتمع، والمخالفة عن صيغة التعامل الإنساني بين الإنسان وأخيه الإنسان.. من الاستنارة بما ورد في شأنها من سوء العاقبة لأصحابها يوم العرض الأكبر على رب العالمين.

ففي كلام طيب مبارك على مسؤولية كل نفس بما كسبت، وما تكون عليه حال المجرمين في نار السعير سقر: نقرأ في سورة المدثر ــ وهي من أوائل ما نزل في العهد المكي من القرآن ــ أن واحداً من أسباب شقوة هؤلاء الذين يتقلبون في الجحيم: أنهم كانوا لا يطعمون المسكين؛ ذلكم قول الله جل وعز: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾[المدثر: ٣٨ ــ ٤٧].

قال الحافظ ابن كثير: أي ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا [٢٩٨/٨]. هكذا أجاب المجرمون بذكر أسباب إلقائهم في النار؛ لأنهم ما ظنوا إلا ظاهر الاستفهام ـ كما يقول صاحب «التحرير والتنوير» ـ فذكروا أربعة أسباب هي أصول الخطايا وهي: أنهم لم يكونوا من أهل الصلاة، فحرموا أنفسهم من التقرب إلى الله. وأنهم لم يكونوا من المطعمين المساكين؛ وذلك اعتداء على ضعفاء الناس بمنعهم حقهم في المال.

وأنهم كانوا يخوضون خوضهم المعهود الذي لا يعدو تأييد الشرك وأذى الرسول ﷺ والمؤمنين.

وأنهم كذبوا بالجزاء، فلم يتطلبوا ما ينجيهم. وهذا كناية عن عدم إيمانهم، سلكوا بها طريق الإطناب لمقام التحسُّر والتلهف على ما فات؛ فكأنهم قالوا: لأنَّا لم نكن من المؤمنين؛ لأن أهل الإيمان اشتهروا بأنهم أهل الصلاة، وبأنهم في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، وبأنهم يؤمنون بالآخرة وبيوم الدين، ويصدقون للرسل. وقد جمعها قول الله تعالى في فواتح سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾.

ويلاحظ هنا ارتباط هذه الخصال الذميمة التي اعترف بها أصحابها من أهل النار، موقنين أنها من أسباب ما يلقون من العذاب المهين في سقر.. يلاحظ ارتباطها بالتكذيب بيوم الدين ارتباطاً يشي بالتلازم بينها كالذي رأينا ـ من قبل ـ في السورة التي يذكر فيها الماعون.

ولما كانت الحقيقة تذكِّر بأختها: فلنذكر هنا ما جرت الإلماحة إليه فيما سبق: مما يكون من شأن من يؤتى كتابه بشماله ـ كما تحدثت سورة الحاقة ـ وكيف أن مآله شر أنواع العذاب في الجحيم؛ إذ نجد من أسباب شقوته أيضاً: أنه كان ـ مع ما هو متسربل به من ظلام الكفر نسأل الله السلامة ـ لا يحض على طعام المسكين.

ولنعد إلى ذكر الآيات الكريمات في ذلك. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٣٧].

قال علماؤنا في تذكير بروعة الأسلوب القرآني في الدلالة على المراد: بأن جملة ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ في موضع العلة للأمر بأخذ هذا الذي أوتي كتابه بشماله وإصلائه الجحيم.

ومن بديع النظم القرآني: ووصف الله تعالى هنا بالعظيم؛ إذ في ذلك إيحاء إلى مناسبة عظيم العذاب للذنب، لأن الذنب كان كفراناً بعظيم؛ فكان جزاءً وفاقا.

والملاحظ أن نفي حضه على طعام المسكين يقتضي بطريق الفحوى ـ كما جرت الإشارة من قبل ـ أنه لا يطعم المسكين من ماله؛ فالمعنى: لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه.

وقد كان أهل الجاهلية مع ما يتصفون به من الكرم في المناسبات: لا يطعمون الفقير إلا قليلاً منهم. وقد جعل عدم الحض على طعام المسكين ـ وهو من ذميم الخصال في التعامل مع الضعفاء ـ مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين حتى بمال غيره، وكناية عن الشح عنهم بماله.

قال العلامة ابن عاشور: (وإذ قد جعل عدم حضه على طعام المسكين جزءَ علة لشدة عذابه: علمنا من ذلك موعظة للمؤمنين زاجرة عن منع المساكين حقهم وهو الحق المعروف في الزكاة والكفارات وغيرها). «التحرير والتنوير» [١٣٨/٢٩ ـ ١٣٩]. ويا سبحان الله كيف جُعل الجزاء من جنس العمل؛ فالاستهانة بطعام المسكين أو الحض عليه في الدنيا: جعلت الغسلين طعام ذلك الجاني في الآخرة.

هل لي بعد هذا أن أقول: إن أبواب الخير مفتحة على مصاريعها أمام المسلم ـ أن لو عقل من بيدهم التنهيج ومن بيدهم التنفيذ ـ لبناء المجتمع المتكافل المتعاون على أساس من الإيمان بالله واليوم الآخر، وأكرم بمنهج القرآن منهجاً يجمع بين العقيدة والأخلاق، وبين الدنيا والآخرة.

خطوة أخرى.. مع البداية المبكرة وسورة الإسراء والروم

«٢»

خطوة أخرى في العهد المكي، حيث لم يكن للدعوة سلطان أو مؤيد تنفيذي، وفي ضوء المؤشرات المبكرة للإصلاح الذي ينشده الإسلام في المجتمع، تمهيداً لإقامة بناه الاجتماعية والاقتصادية والفكرية وغيرها على نهج مبرء من أوضار الجاهلية وأعراف الجاهليين، وذلك بإحكام ارتباطه بعقيدة التوحيد التي تكرِّم الإنسان، وتوجهه وجهة ما مثلها من وجهة في تحقيق ما من أجله خلق الإنسان.

وبعد الذي رأينا من إنكار القرآن لظاهرة الظلم الاجتماعي في المجتمع الجاهلي، وتعجيبه منها، ولانعزالية الفرد عن التعاون على الخير ممثلاً في تقديم العون لمن قعدت بهم الأقدار عن اللحاق بركب الآخرين، وفي الإسهام بتنمية الطاقات الخيِّرة في المجتمع؛ الأمر الذي ذكَّر القرآن من خلاله العاقبة السوء والعذاب الأليم لأولئك الذين يستبدلون الإساءة إلى من هم أهل للمعاونة والبر: بالإحسان والأخذ بأيديهم إلى مستوى الكرامة الإنسانية والقدرة على العطاء، حيث يحمل ذلك ما يحمل من الخير لهم وللمجتمع!!.

أقول: خطوة أخرى في العهد المكي، وفي ضوء ذلك كله تأخذ بأيدينا ـ في نقلة من ساحة الإنكار والوعيد ـ إلى تقعيد قواعد ورسم مبادىء يظلها المنهج الرباني؛ وذلك ما نجده في الأمر بإيتاء ذوي الحقوق حقوقهم، بعيداً عن كل تصرف فيه مظلمة لأحد، أو إضاعة للمال بالسرف والتبذير وغيرهما، وأن يكون تحرك الفرد في المجتمع: تحرك أداء الحقوق مصحوباً بالإحسان والعمل الصالح، مع التعاون على كل ما فيه خير الفرد والجماعة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، نقرأ في الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من سورة الإسراء ـ وهي سورة مكية ـ قول الله جل ذكره: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

أرأيت إلى هذا المنهج الإصلاحي الفريد منذ بداية الطريق؟! الحقوق مصونة، والفرد مطمئن ـ حسب الأسباب المتخذة ـ إلى يومه وغده بكلمة الله. وإيتاء كلٍّ من ذي القربى والمسكين وابن السبيل ما هو له من الحقوق: واجب بأمر الله عز وجل، والمخالف عن ذلك مخالف عن أمر الله متبع لخطوات الشيطان! ويا لها من مخالفة سوء واتباع أسوأ!!.

وإذن فأداء هذه الحقوق لأصحابها الذين تلفُّهم حالة من الضعف: ليس تفضلاً من أولئك الأغنياء الأقوياء، ولكنه واجب أوجبه الله تبارك وتعالى الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، والمال ماله، والرزق من عنده سبحانه.

وتلك هي ضمانة الاستقرار في المجتمع من هذه الناحية، وهي طاعة لا يشوبها حقد ولا ضغينة، ولكن يبعث عليها امتثال أمر الله واجتناب نهيه اتقاءً له وطلباً لمرضاته جل شأنه.

ثم إن تبذير المال ـ الذي توعّد الله عليه بعد أن أمر بالإنفاق وأداء الحقوق ـ خصلة منهي عنها بنهي الله تبارك وتعالى ـ والنهي يقتضي التحريم؛ فالوقوع في حمأة التبذير بالتزيد المذموم، والإنفاق غير المنضبط بالضوابط السليمة ـ عدا عما فيه من إضاعة المال والإساءة إلى اقتصاد الفرد والمجتمع ـ: وقوع فيما نهى الله عنه وهو ارتكاب المحرَّم والعياذ بالله، وانسلاك في أخوة الشياطين؛ فالمبذرون إخوان الشياطين، وهم يرضون ذلك لأنفسهم، مع أن الشيطان كفور لربه ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

ومن بلاغة القرآن: أن ما ختمت به الآية يوجب الحذر من متابعة الشيطان والتشبه به في الفساد والإفساد، وفي ذلك ما فيه من بعث القوة النفسية والإرادة الإيمانية بامتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه من التبذير الذي يحمل ما يحمل منه التشبه بالشيطان واتباع خطواته.

قال الحافظ ابن كثير: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: في التبذير والسفه، وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي جَحوداً، لأنه أنكر نعمة الله ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفة أمره [تفسير القرآن العظيم] (٦٦/٥).

ولا يخفى أن العلاقة وثيقة بين التبذير والإسراف؛ فكما أن المبذرين إخوان الشياطين، فإن الله تعالى لا يحب المسرفين وكفى بذلك وعيداً أيَّ وعيد!! يقول الله تعالى في سورة الأعراف ــ وهي سورة مكية ــ ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وإذا كان السرف تجاوزَ الحد في كل فعل يفعله الإنسان: فهو في الإنفاق أشهر، ونهى الله عن ذلك ــ كما نرى ــ شديد النهي.

وقد جاءت السنة بما يقرر ذلك ويؤكده؛ من ذلك ما روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير مَخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده**»(١) ورواه النسائي وابن ماجه من حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ ــ واللفظ للنسائي ــ قال: «**كلوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة**»(٢) ولفظ ابن ماجه «**كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم يخالطه إسراف أو مَخيلة**»(٣). والمخيلةُ: الخُيَلاء.

(١) «المسند»: (١٨٢/٢) وانظر: (١٨١/٢).
(٢) «سنن النسائي» - المجتبى-: (رقم ٢٥٥٩).
(٣) «سنن ابن ماجه»: (رقم ٣٦٠٥).

وهكذا تجد أن مما تهدي إليه المعالم القرآنية في الآيات الآنفة الذكر: صيانةَ التمتع بنعم الله تعالى عن التبذير والإسراف، الأمر الذي يتصل بالناحيتين الاجتماعية والاقتصادية أوثق اتصال.

وفي سورة «الروم» ــ وهي سورة مكية أيضاً عدا الآية الأخيرة منها ــ يأخذ الترغيب في أداء الحقوق المنوه عنها في سورة «الإسراء» مداه، حين يجعله القرآن عنوان من يريدون بصنيعهم وجه الله، ويبشرهم بأن هذا الأداء خير لهم، وبأنه ــ وهو كذلك ــ صورة حقيقية لأهل الفلاح؛ ذلكم قول الله جلَّ وعز: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾[الروم: ٣٨].

وفي استيفاء لما يرمي إليه المنهج القرآني من الإصلاح، ترغيباً وأمراً بالبذل وأداء حق الضعفاء وصلة الرحم، وترهيباً مما هو من الفساد والإفساد على ساحة تثمير المال: نرى أنه لما جرى الأمر بالإحسان وبذل المال صلةً للرحم وإغاثة لذوي الحاجة وبيان ما في ذلك من الصلاح للفرد والجماعة، أعقب ذلك التنفير من ضرب آخر من إعطاء المال لا يرضى الله عنه، يبعث عليه الحرص على جمع المال وتثميره الأمر الذي يعمل عمله فساداً وخلخلة للبنية الاجتماعية والاقتصادية: وهو أكل الربا الذي كان متفشياً في الجاهلية وصدر الإسلام وبخاصة في ثقيف وقريش، ولا يخفى أن هذا النوع من التعامل هو من أبشع الصور التي تمتهن فيها الأخوة الإنسانية بين الناس، وتحدث ما تحدث من الحقد والبغضاء واضطراب القيم.

فلما أرشد الله المسلمين إلى أمر مهم في بناء المجتمع المسلم، وهو مواساة أغنيائهم فقراءهم، وصلة الأرحام، ومعاونة ذوي الحاجة، أتبع ذلك بتهيئة نفوسهم للكف عن المعاملة بالربا للمقترضين منهم؛ ذلك بأن المعاملة بالربا تنافي المواساة والتعاون على الخير؛ لأن شأن المقترض أنه ذو قلة، وشأن المقرض أنه ذو جدة؛ فمعاملة المقترض منه بالربا: انتهاز لحاجته، واستغلال لاضطراره وذلك لا يليق بالمؤمنين، ويتنافى مع التعاون الأخوي على بناء مجتمع تسوده المرحمة وتتوافر له عناصر النماء والعطاء.

ويجوز أن يكون لفظ «ربا» في الآية منحازاً إلى المعنى اللغوي، فيكون قد أطلق في الآية على الزيادة في مال المعطى له المال، أي إعطاء المال لذوي الأموال قصدَ الزيادة في أموالهم تقرباً إليهم، بمعنى أن المال يعطى لغير المحتاج كي يزيد ماله، وبذلك يحظى لديه من أعطاه الزيادة بالقرب والإيثار ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾[الروم: ٣٩].

وهذا يشمل هبة الثواب، والهبة للزلفى والملق. وعندها يكون الغرض من الآية التنبيه على أن ما كانوا يفعلونه من ذلك في الجاهلية، لا يغني عنهم من موافقة مرضاة الله تعالى شيئاً، بل إن نفعه لأنفسهم!.

وقد جنح إلى هذا المعنى كثير من المفسرين، ويساعد عليه كون الآيات مكية؛ فيصير المعنى: وما أعطيتم من زيادة لتزيدوا في أموال الناس، فلا يربو عند الله ولا يزكو. ولكن الذي يضاعف ويزكو هو ما كان عطاءً لوجه الله. وذلك صريح قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي أولئك الذين كُتِبَ لهم الأجر وحصل لهم إضعاف الثواب عند الله.

وكان من بلاغة النظم القرآني: الإتيانُ باسم الإشارة في قوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ إذ دلَّ ذلك على التنويه بهؤلاء الذين أرادوا بعطائهم وجه الله، والدلالة على أنهم أحرياء بالتوفيق والفلاح.

هكذا كانت نثارات الضياء هذه في العهد المكي: بداية الطريق لعملية بناء كبرى، لم تقتصر على ميدان في المجتمع دون ميدان؛ أزالت الركام الجاهلي، وحركت في الإنسان نوازع الخير المرتبطة بالعقيدة، ودفعت إلى معركة التنمية والبناء أناساً كانوا قبل الإسلام طاقات موضوعة في غير موضعها الطبيعي، بل ضائعة أحياناً في متاهات الأعراف الجاهلية والتظالم.

وإنها لعبرة تقود ـ على صعيد الواقع ـ إلى استئناف السبيل الأقوم بجدية لا تزيغ عن منهج الهداية في كتاب الله وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وبعد: فتلكم واحدة من صور الهداية في معالم الكتاب الكريم التي تحقق ما ينبغي للسلامة في قواعد البناء، ومنهجية استمراره معافىً من الأذى، في محاصرة لكل السلبيات التي يتكوَّن منها نذير الخطر بانحلاله وشلِّ حركته عن العطاء.. إنها خطوات منهج متكامل لبناء قويم متكامل. ولربنا الحمد كلُّه على نعمة الإسلام!!.

obeikandl.com

هدم وبناء.. صورة أخرى.. سورة الفجر... والنساء

لم تكن الصفات التي كشفت عن واحد من الجوانب المظلمة في المجتمع الجاهلي، والتي هي حريَّة بأن تعوق التقدم واضطراد النمو.. هي كلَّ ما أُسند في الكتاب العزيز لأولئك الذين كانوا في عقيدتهم وسلوكهم ـ على مختلف الأصعدة ـ عنوان هذا الجانب المظلم الذي يتجافى عما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان في ذلك المجتمع.

أجل: لم تكن تلك الصفات التي صحبنا ـ من قريب ـ بعض النصوص المباركة الناطقة بها، كلَّ ما أسند إليهم من ذلك؛ بل هنالك نصوص عدة تؤذن بصفات أخرى لا تقل خشونة عنها.

ها هي ذي سورة «الفجر» تصفهم بصفتين أخريين تزيدان الأمر وضوحاً، وتؤكدان محاصرة الدعوة ـ في الميدان الفكري على الأقل ـ لكل ما من شأنه الظلم، وتعويق مسيرة الخير التي تنشدها الفطرة ـ أن لو كانت هنالك مسيرة كهذه ـ وإحداث الثغرات في الصفوف:.. تؤكدان ـ مع زيادة الإيضاح ـ أن ذلك مطلب هام على هذه الطريق.

نجد ذلك في قوله تعالى ـ خطاباً للكافرين في هذه السورة ـ: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ جاء ذلك بعد قوله سبحانه: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ والأكل اللمُّ للمال: هو الأكل معصية، فهم يأكلونه عاصين بأكله.

وهكذا أتبعت كلمة الردع «كلا» بأربع خصال هي: عدم إكرام اليتيم، وعدم التحاض ـ أي أن يحضَّ بعضهم بعضاً ـ على طعام المسكين، وأكل التراث أكلاً لماً، وحبٌّ المال حباً جماً، وانظر كيف قدمت خصلة عدم إكرام اليتيم هنا، دليل المزيد من استنكارها، والإشعار بالتنديد بها في مقدمة تلك الخصال التي كلها مدعاة التنديد والاستنكار.

والأسلوب القرآني الفريد في هذا اللون من الهداية يذكرنا قوله تعالى خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

قال الحافظ ابن كثير عند الكلام على قول الله جل شأنه: (﴿بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي أيوب عن يحيى بن أبي سليمان، عن زيد بن أبي عتاب، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه. وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه**» ثم قال: ـ بأصبعيه ـ «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وقد أوردت من قبل ما روى أبو داود وغيره من قوله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة**». وقرب بين أصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام).

والحق أن أكل التراث ـ وهو الإرث هنا ـ أكلاً لماً: يعني أنهم كانوا يأكلون الإرث من حلِّه ومن غير حلِّه؛ لأن المهم عندهم أن يحصلوا على المال؛ فهم يحوزونه من أي جهة أتاهم دون قيد في الحكم أو الخلُق.

ومعروف أن المجتمع الجاهلي كان راضياً عن حرمان أفراد أسرة الميت، وأولي رحمه وقرابته من إرثه مهما كانت درجة قرابتهم لصيقةً به؛ ما عدا أولئك الأشداء القادرين على الدفاع عن القبيلة وحماية الذمار؛ فهؤلاء ـ بما توافر لهم من هذا السبب ـ هم الذين يحتازون التركة كلها. أما النساء والأطفال ـ ذكوراً كانوا أو إناثاً ـ: فليسوا من إرث متوفاهم في قليل ولا كثير.

وهذا أمر يتشابك فيه - كما هو الملاحظ - الجانب الاجتماعي بالجانب الاقتصادي؛ فمما لا ريب فيه أن الإرث على هذه الطريقة الجاهلية ـ طريقة ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ ـ من عوامل التفكيك، وإشاعة الظلم الاجتماعي، والشعور بالاغتراب من داخل الأسرة نفسها، الأمر الذي يولِّد - مع الشعور بالظلم والعدوان على الحق ـ تنمية النزعة الفردية المرتبطة بالمصلحة الذاتية دونما نظر إلى الآخرين؛ لما أنه من الناحية الاقتصادية - أيضاً - عامل من عوامل تمركز الثروة على حساب العدالة، وجعل الفقر يصيب أهل الاستحقاق الآخرين؛ ظلماً وعدواناً. إذاً ما ذنب الطفل في أن يحرم من الإرث لأنه طفل، وما ذنب المرأة في أن تحرم من الإرث لأنها امرأة؟!.

هذا: ولم تكن طويلة تلك الرحلة الزمنية التي امتدت بين الكشف عن تلك الخصلة المرضي عنها لدى المشركين في المجتمع الجاهلي ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ - وكان الخطاب فيها للجماعة - وبين ما أنزل الله جل شأنه بعد بضع سنين في العهد المدني بعد الهجرة من آيات في سورة النساء: تضع نظاماً كاملاً للتوارث يتسم - مع الإجمال - بكثير من التفصيل في الأنصباء والحقوق؛ فقد حدّد أسباب الإرث ونوع القرابة التي ترث، كما حدّد موانع الإرث، وأعطى حق الإرث للرجال والنساء والصغار والكبار الذين تتوافر فيهم أسباب الإرث وتنأى عنهم موانعه؛ فهم يستوون في أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض لكل منهم بالنصوص، لأن كل أولئك جاؤوا بأنصباء محدّدة، بشكل مفصّل، وما لم يفصَّل في الكتاب العزيز فصَّلته السنة إلى اجتهاد للعلماء - فيما بعد - يتعلق بدلالات النصوص وتشعبات حالات الإرث. حتى إنك لتستطيع القول جازماً الجزم كلَّه بأنه لو لم يكن من الأدلة على أن القرآن كلام الله وليس من كلام البشر. إلا آيات الإرث في سورة النساء لكفى بذلك خير دليل على هذه المقولة المباركة اليقينية.

فأين هذا النظام الرباني الحكيم من عبث الجاهلية والجاهليين الذي تضيع معه الحقوق، ولا يحسب فيه لإنسانية الإنسان حساب؟!.

لقد كان ما جاء به الكتاب العزيز في سورة النساء المدنية من نظام الإرث صورة من الصور التي علَّمت الأمة كيف يكون التنهيج الصحيح للبناء، وسلكت بها الطريق الإيجابية البانية في الإصلاح، تلك الطريق التي تقوم على تهيئة الإنسان من داخل نفسه لقبول ما هو صالح واستنكار ما هو فاسد، وإزاحة الركام الفاسد، وإقامة البديل الصالح المناسب.

لقد نعى الله على الجاهليين أنهم يأكلون التراث أكلاً لماً، وعندما تكونت الجماعة المؤمنة، وأصبحت الدعوة قادرة على تسلم زمام الحكم وقيادة المجتمع طريقاً لبناء الدولة، نزل الوحي بتلكم الآيات التي تفصِّل نظام التوارث على النحو الذي أشرت إليه إشارة عجلى لا يتسع لأكثر منها المقام لأن تفصيل ذلك موجود في مظانِّه من كتب التفسير والحديث والفقه، وما كتب حول ذلك من بحوث وقام به القادرون المؤهلون من دراسات!!

وقد بدأت تلكم الآيات الكريمة بالآية السابعة من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ﴿٧﴾﴾الآيات.

روى الطبري عن سعيد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، فأنزل الله ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ...﴾ الآية، قال الحافظ ابن كثير: (أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض لكل منهم، بما يدلي به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء؛ فإنه لحمة كلحمة النسب).

وإلى أن نلتقي على متابعة هذه الرحلة مع معالم الكتاب في هذه القضية الاجتماعية الاقتصادية الكبرى: أرجو أن يكون لأهل المعرفة والثقافة فينا عزيمة القراءة الجديدة المتأنية لتاريخ هذه الدعوة الإسلامية المباركة، فيما هدمت من الباطل، وفيما بنت من صروح الحق على طريق الإنسان، وفيما كان من منهجيتها المعجزة وإيجابيتها الفريدة في الهدم والبناء.

وطوبى لمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وجنة الخُلد مشتاقة طلابها العاملين المخلصين!